



الشفاعة - تساؤلات أهل الكفر

(034) سورة سبأ

اللقاء الخامس من تفسير سورة سبأ | شرح الآيات 23-30

2024-07-29

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد أيها الإخوة الأحباب: لازلنا في تأملاتنا وتدبر سورة سبأ، وقد وصلنا إلى قوله تعالى وهي الآية الثالثة والعشرين من السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقُّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)

(سورة سبأ)

ما هي الشفاعة:

أيها الإخوة الأحباب: الشفاعة في الأصل هي من الشفع، وهو الزوج في اللغة، وهو ما يقابل الوتر قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ (3)

(سورة الفجر)

والشفاعة في الاصطلاح: هي أن يتوسط أحد من أهل الجاه عند الشافع من أجل المشفوع له، ففي دنيانا يتدخل أحد الوجهاء فيشفع لفلان عند فلان ليوطفه وظيفه، أو ليرفع عنه عقوبة، أو ليعطيه مكافأة، هذه تسمى شفاعة يشفع له، فيصبحان زوجين الشافع والمشفوع له، فيشفع له، والشفاعة محمودة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ تَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا (85)

(سورة النساء)

فالشفاعة الحسنة محمودة، ويجب علينا أن لا نألوا جهداً في الشفاعة، إذا كان إنسان يتوسط لديك اذهب وكلم فلاناً في الأمر، فما عليه لو ذهبت وأنت تعرفه وكلمته، فإن استجاب فقد استجاب، وإن لم يستجب فانت أخذت أجرك في الحالين، فلا يمنع أن يشفع، ولا يأخذ أجراً على شفاعته كما يقول أهل العلم، لأن الشفاعة عبادة والعبادة ليس عليها أجر، لا يقول له: اذهب أريد مالاً، أشفع لوجه الله تعالى، فالشفاعة عبادة يؤجر المرء عليها، اشفع في زوج، الشفاعة في نكاح، كأن يأتي إلى والد الفتاة ويقول له: هذا يريد ابنتك، هو رجل طيب، وأعرفه على خلق ودين الصلاح، فلعلك تزوجه، وإن كان من غير بلدك لكنه إن شاء الله رجل صالح، النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

{ إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساداً. قالوا: يا رسول الله! وإن كان فيه؟ قال: إذا

جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه. ثلاث مرات }

(أخرجه الترمذي والبيهقي)

الشفاعة مطلوبة ومحمودة وهي في الآخرة حق:

هناك بعض الناس بأنف من الشفاعة، أو يقول لك لا أدخل نفسي فيها، لا شك أن هناك متاعب، لكن الإنسان يتحمل المتاعب في مقابل الأجر الذي يأتي، فالشفاعة أمر محمود، وابن عباس رضي الله عنهما كان مُتَعَكِّفًا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد رجلاً جالساً وقد تركه الهيم، فقال له: مالك؟ قال: ديون ركبتي لا أطيق سداها، قال: لمن؟ قال: لفلان، قال: أحب لك؟ هو عرض عليه أن يشفع، هو عرض أن يتوسط قال له: أكلمه لك؟ قال: إن شئت افع، فوقف ابن عباس رضي الله عنهما وخرج من معتكفه، فقال له أحد الجالسين: أنسيت أنك مُتَعَكِّفٌ؟! لأنه لا يخرج الإنسان في الاعتكاف من المسجد، فقال: لا والله ما نسيت، ولكني سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب، وبكى ابن عباس، يقول: لأن أمشي مع أخ لي في حاجة خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا.

{ أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأثاء رجلٌ فسلم عليه، ثم جلس، فقال له ابنُ عباسٍ: يا فلانُ، أراك كنيئاً حزينا،

قال: نعم ابنُ عمِّ رسولِ الله، لفلانٍ عليَّ حقٌّ، لا وحُرْمَةِ صاحبِ هذا القبرِ ما أقدِرُ عليه، قال ابنُ عباسٍ: أفلا أكلّمهُ فيك؟ قال: إن أحببت،

قال: فانتعل ابنُ عباسٍ ثمَّ خرج من المسجد، فقال له الرَّجُلُ: أنسيت ما كنتَ فيه؟ قال: لا، ولكنِّي سمعتُ صاحبَ هذا القبرِ صَلَّى اللهُ عليه

وسلمَّ والعهدُ به قريبٌ - فدمعت عيناه - وهو يقولُ: من منّني في حاجةٍ أخيه وبلغ فيها كان خيراً من اعتكافِ عشرين سنين، ومن اعتكف يوماً

ابتغاء وجهِ اللهِ تعالى جعل اللهُ بينه وبين النَّارِ ثلاثةَ خنادقٍ أبعدَ ما بين الخافقين }

(أخرجه البيهقي إسناده ضعيف)

ففهم ابن عباس وعلمنا أن الشفاعة أمر محمود أن تقف مع أخيك، أن تتوسط له، أن تكلم له من يؤجل له الدين أو يُعفيه من بعضه، أو تشفع في نكاح، إلى آخره.

فالشفاعة مطلوبة ومحمودة، والشفاعة في الآخرة حق، ولكن منها ما هو منفي ومنها ما هو مثبت، فأما المنفي فهو الشفاعة للمشركين، فإنه لا تقبل الشفاعة عند الله لمن مات مشركاً به، فلا بُدَّ أن يتوفر شرط في المشفوع له وهو أن يكون مؤحداً، ولا بُدَّ أن يتوفر شرط في الشافع وهو أن يقبل الله شفاعته، فإذا رضي الله عن الشافع والمشفوع كانت الشفاعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ حَسْبَيْهِ مُشْفِقُونَ (28)

أعظم الشفاعات شفاعتنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

ولا يشفعون إلا بإذنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ
(255)

(سورة البقرة)

فلا بُدَّ من إذن الإله لتحصل تلك الشفاعات، وقد جاء في الأحاديث الشريفة ما يُبيِّن بعض هذه الشفاعات، ومنها شفاعتنا الشهيد في سبعين من أهل بيته، ومنها شفاعتنا الابن الذي حفظ وتعلم ودرس كتاب الله في والديه، وأعظم الشفاعات شفاعتنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في إخراج الناس الذين استحقوا النار إلى الجنة، وشفاعته عندما يقف بين يدي الله تعالى، فيبدأ الحساب بعد أن يعطى العرق الناس، إلى آخر ذلك من الشفاعات التي أوردتها السنة، والحقيقة أنَّ الشفاعات تُثبتها كما أثبتها القرآن الكريم في أنها تحصل بإذن الله تعالى، وتثبتها بما أثبتتها السنة الشريفة، لكن لا نُعوِّل أو لا نشجَّع الناس أو نُسهِّل لهم الطريق أفعال ما شئت والنبى صلى الله عليه وسلم يشفع لك، فليس هذا مفهوماً صحيحاً للشفاعة، وإنما ينبغي أن تستقيم حتى تستحق شفاعتنا رسول الله، ينبغي أن تكون على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تستحق شفاعته، فإنه كما ورد:

{ إني قرطكم على الخوض، من مرَّ عليَّ سرب، ومن سرب لم يظمأ أبداً، ليردَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثمَّ بحال بيبي
وبيتهم. قال أبو حازم: فسمعني التَّعمان بنُ أبي عيَّاش، فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدريِّ،
لسمعتُه وهو يزيدُ فيها: فأقول إنَّهم مِنِّي، فيقال: إنَّك لا تدري ما أخذتوا بعدك، فأقول: سُحفاً سُحفاً لمن عَبرَ بعدي. }
(صحيح البخاري)

فالنبى صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا، ونحن نؤمن بذلك ونتنظر شفاعته ونسأل الله أن يُشفِّع رسوله بنا، لكن لا يعني ذلك أن نترك العمل ونتكل على الشفاعتنا بحال. هناك شفاعتُ منفية كما قلنا، والله تعالى ذكر ذلك في قرآنه فقال في آيتين في سورة البقرة آية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (48)
(سورة البقرة)

والآية الثانية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123)
(سورة البقرة)

فحدث في آية (وَلَا يُغْتَلَبُ مِنْهَا شَعَاعَةٌ) عن الشافع، وفي الآية الثانية عن المشفوع له (وَلَا تَنْفَعُهَا شَعَاعَةٌ) فقد لا تُقبل الشفاعة ممن يشفع، وقد لا تنفع الشفاعة لمن يُشفع له لأنه استحقَّ العذاب وليس ضمن الشفاعة، وأنا أمثل مثل بسيط جداً، كان عندنا في الجامعة أيام كذا، كان خمسون بالمئة علامة النجاح، وكان ينزل في النتائج ثمانى وأربعون زائد اثنان، الشفاعة هي علامتين، يعني قسّر بالامتحان بعلامتين فيُشفع له بعلامتين بأي مادة، وفي السنة الأخيرة عند التخرج الشفاعة بخمس علامات، فإذا حصل على خمسة وأربعون وبقيت المادة الوحيدة للتخرج كانوا يكتبوا بالنتائج وكانت بخط اليد قبل الحاسوب، كانوا يكتبون خمسة وأربعون زائد خمسة، هذه تحصل مرة واحدة بالمادة الأخيرة التي يحتاجها ليتخرج من الجامعة، فيُشفع له بخمس علامات، فكان الشفاعة ولله المثل الأعلى ولرسوله المثل الأعلى، هي تلك الدفعة الأخيرة، ولكن ليست تلك التي تُعفي الإنسان من العذاب لأنَّ الله تعالى يقول في قرآنه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123)

(سورة النساء)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

(سورة الزلزلة)

الهدف من الشفاعة هو نفعها للمشفوع له وليس قبولها فقط:

فلا تُعَدُّ النصوص لثبوت الشفاعة بمفهوم عام شامل من غير أن تُبيَّن حقيقةً، فالشفاعة حقٌّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولمن يرتضي الله تعالى من عبادِه، وللشهداء ولغيرهم في رفع الدرجات وأحياناً في الانتقال من النار إلى الجنة، لمن غلبت سيئاته حسناته وإلى غير ذلك مما بينته كتب السنَّة المُطهرة.

فقال تعالى: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ) وما قال ولا تُقبل الشفاعة قال هنا: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ) لأن الهدف هو نفعها وليس قبولها، فإذا إنسان قال لك: قبلت شفاعتك ثم لم ينتفع المشفوع له بها، فكأنها ما قُبِلت، فجاءك بالنتيجة التي يريدها المشفوع له وهو أن تنفع الشفاعة.

قال: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ (فُزِعَ أي أزيل الفرع، هذه السَّدة تُسمِّيها للإزالة، يعني مرض الرجل فمَرَّضُهُ أي أزلت مرضه، وقُشِرَتِ التفاحة أي أزلت قشرتها، وفُزِعَ عن قلبه أي زال الفرع عن قلبه، قال: (حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) أي زال الفرع، لماذا حصل الفرع؟ هيبَّة من الحقِّ جلَّ جلاله والناس ينتظرون الشفاعة بين يديه، الموقف وحده هذه الثواني أو الدقائق أو سَمَّيْهَا ما شئت، قد تمتد بالإنسان إلى ساعات من هول المشهد أو أيام، وهي ربما تكون جزءً بسيطاً من الزمن، وهو ينتظر إذن الله تعالى في الشفاعة، فقال: (حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) من هيبَّة الموقف وانتظار الحُكم والفصل من الله تعالى.

(قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) قالوا للملائكة: ماذا قال ربكم؟ ما النتيجة؟ أذن أم لم يأذن؟ (قَالُوا الْحَقُّ) فالله تعالى لا يقول إلا الحقَّ، فإن أذن بالشفاعة فهو الحقُّ، وإن لم يأذن بها عدلاً منه جلَّ جلاله، لأنَّ هذا المشفوع له لا يستحقها فهو الحقُّ، (قَالُوا الْحَقُّ) جلَّ جلاله هو الحقُّ وقوله الحقُّ وحُكْمه الحقُّ (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) وجاء الختام متناسباً مع جو الآية العام، وهو الخوف في هذا الموطن الذي ينتظر الإنسان فيه نتيجته، اليوم طلاب التوجيهي ساعات الانتظار قبل أن يفتح نظام الهاتف ويأخذ النتيجة، يخفق قلبه وينزل عرقه، ويغطه العرق وهو ينتظر أن يقال له ناجح أو راسب، أو تسعون بالمئة أو تسعة وثمانون بالمئة، فكيف إذا كان الإنسان ينتظر نتيجةً بعدها سعادة الأبد أو شقاوة الأبد، نسال الله السلامة، ولذلك قال: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) فهو عليٌّ فوق خلقه كبيرٌ جلَّ جلاله.

الناس يتفاوتون في مدى إقبالهم على الله الرزاق:

ثم يقول المولى جلَّ جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ فُلِ اللَّهِ ۖ وَإِنَّا أَوْءَاكُمُ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) فُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25)

(سورة سبأ)

(فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) المشركون ما كانوا يُنكرون أنَّ من يرزقهم من السماوات والأرض هو الله، ولكن قال له الله تعالى أجابوا أم لم يجيبوا (فُلِ اللَّهُ) لأن هذه الحقيقة التي لا يُنكرها أحد، يعني لا يُنكر أحد أنَّ الرزاق هو الله، لكن الناس يتفاوتون في مدى إقبالهم على الرزاق، هم يعلمون أن الرزق منه لكن بعضهم يغشَّ المسلمين ليُحَصِّلَ الرزق، رغم علمه أن الله هو الرزاق، والبعض يقول لك: مادام الله تعالى هو الرزاق فلا أتوجه إلا إليه، لماذا أغشَّ المسلمين رزقي حاصل؟ فلا يغشَّ، فالناس يتفاوتون في مدى علاقتهم بالرزاق، وليس في اعترافهم بأنَّ الله هو الرزاق، هذا هو الأصل، فقال: (فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهذا من أعظم مفاهيم العبودية وهو الرزق، لأنَّ الولد رزق، والزوجة رزق، والرزق ليس مالا فقط، المطر رزق، الشجر رزق، السكنية في القلب رزق، الإيمان أعظم رزق، الاستقامة على منهج الله أعظم رزق يرزقك الله به، فليس الرزق هو المال فقط، الرزق مفهومٌ واسع فقال: (فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ فُلِ اللَّهُ) هو الرزاق جلَّ جلاله.

الهدى والضلال ضدان لا يجتمعان ينفي وجود أحدهما الآخر:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) الهدى والضلال ضدان، والضدان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون هناك كافرٌ ومؤمنٌ وكلاهما على هُدى، ولا يمكن أن يكون الناس خيرٌ وشرٌ وكلاهما على حقٍّ، لا يمكن لأحدهما ضدان لا يجتمعان، الليل والنهار ضدان، الأبيض والأسود لا يتناقضان، هما ضدان لكن لا يتناقضان، فيمكن أن نجد الأبيض وأمامه الأسود معاً، لكن النور والظلام وجود أحدهما ينفي وجود الآخر، فهناك ضدان وهناك متناقضان، فالضلال والهدى بصلان إلى التناقض، بحيث وجود أحدهما يلغي وجود الآخر، فمن هو على هدى فهو ليس في ضلال، ومن هو في ضلال فهو ليس على هدى، لذلك قال تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وهذا من أعظم الأسباب أو من أعظم الإشارات في التلطف في الحوار مع المخالف، يعني ما سبق أحد القرآن الكريم أن يقول الله لنبيه الذي هو الحقُّ الصريف، ولمنهجه الذي هو الحقُّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، ما سبق أن يقال قل له: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) يعني بمعنى آخر، أنا أدخل معك في حوار، إذا دخلت أول الحوار وأنا أقول أنا الحقُّ وأنت الباطل في حياتنا الدنيا يعني، إذا دخلت بالحوار بهذا الشكل فلن أخرج بنتيجة أصلاً، الإمام الشافعي رحمه الله تعالى من أعظم كلماته التي تجري على الألسنة، أنه كان يقول: "رأبي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" طبعاً ليس في العقيدة، ليس تشكيكاً في العقيدة معاذ الله، لكن في الرأي هذا تعليم لنا بأشياءٍ أخرى ليس في العقيدة، رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

في الفقه في مسألة من مسائل الفقه الاجتهادية رأيي صواب، لأنه لو لم أعتقد أنه صواب لَمَا دافعت عنه، لكن هل هو حقٌّ صرف؟ لا، يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، وأعظم من ذلك أنَّ الإمام الشافعي كان يقول: " ما ناطرت أحداً إلا وأحبت أن يكون الحقُّ معه" يعني ما دخلت في مُناظرةٍ إلا وأحبت أن أخرج فأستزيد، فأستنبط أنني كنت مُخطئاً وأنَّ الحقَّ كان معه، وهذه بئنة صافية لا يملكها إلا الثدرة من البشر ممن اصطفاهم الله تعالى، فهذه الآية أصلٌ في التلطف مع المخالف، الحقُّ واضح والباطل واضح، والنبي صلى الله عليه وسلم على حقٍّ وهم على باطل، ومع ذلك يقول له: تَلَطَّفْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَسْمَعُوا إِلَيْكَ، (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (على) تفيد الاستعلاء، و(في) تفيد الاستعراق، فالهدى عالي، ومن يكون مُهتدياً فهو على هُدى، يتمكن من الهدى، والصال يدخل في مناهات الضلال التي لا تنتهي، فيكون في ضلالٍ مبين، لذلك في الأعمُّ الأغلب في القرآن: أولئك على هدى من ربهم، أولئك في ضلالٍ، فالضلال في، والهدى على، والعلو فيها استعلاء، والفي فيها ظرفية، الداخل في الضلال تأثُّه، والتمسك من الهدى على، ثابت، ثم يقول له وهذه أعظم من الأولى: (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أٰجْرَمْنَا) فسَمِّيَ فعله إجراماً، وسَمِّيَ فعلهم عملاً، (وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ)، وجاء بالإجرام بصيغة الماضي فكأنه فُعل وانتهى، وجاء بتعملون بصيغة المضارع وكان الأمل مازال أمامهم، لم ينته الأمل بإمكانكم أن تغيروا (لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أٰجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

القوة تكمن في الحكمة والتلطف في التعامل مع المخالف:

يعني قمة التلطف مع المخالف، ليعلمنا الله تعالى هذا الأسلوب الراقي في الحوار مع الناس، والحقيقة أنَّ هذا لا يفعله إلا المتمكن مما بحمله، دائماً الضعيف في الحجة والحوار لا يقول ذلك، الضعيف يعلو صوته، ويُسخف آراء الآخرين ولا يعترف بها أمامهم، القوي فقط الذي يُسلم لخصمه وينقل إلى النقطة التي بعدها، كحال إبراهيم عليه السلام مع النمرود لما قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

(سورة البقرة)

يعني تأمل الإحياء والإماتة، ربك يُحْيِي ويميت، وأنا أحكم على شخص بالموت فيقتلونه فأنا ملك، وأحكم على آخر بعد أن حكم بالإعدام، أعني عنه فأحبيه (قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) فماذا قال إبراهيم عليه السلام؟ (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) لأنه صاحب حجة قوية، ما استمر معه في نقاشٍ فيه تأوّل، فإذا تأوّل خصمك في مسألة ما، فانتقل به إلى مسألةٍ ثانية هذه علامة قوة، (قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) سأسلم لك لأن الحوار هنا أصبح مسدوداً، الطريق مسدود، وإن كان الإحياء والإماتة مختلفين، شتان بين من يُحْيِي من العدم ويميت إماتة حقيقية، ومن يحكم حكماً إن شاء الله تعالى أمضاه وإن شاء منعه، لكن مادمت تتأوّل فسانتقل إلى حالةٍ ثانية (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)، (لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أٰجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)

(سورة سبأ)

القاضي كان يُسمَّى في بعض البلاد الفِتَّاح، لأنه عند اشتباك الخصومة تحتاج إلى حلها، فتفتح فتحةً بين الطرفين لتحل المشكلة، فالقاضي يفتح لحل المشكلة، فقال: (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا) سنفتح بين يدي الله جميعاً، وسيفتح بيننا ربنا بالحق، فسيقضي من الذي كان على حقٍّ، ومن الذي كان مُبطلاً.

(وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) يعلم حالنا وحالكم ويفتح بيننا بالحق، فالقوي أحياناً بالنقاش القوي صاحب الحجة القوية يتكلم بهذه الصورة، (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) وهذا إن كان الخصم فيه خير فإن هذا الكلام يقع في قلبه موقع، وإذا قلت له غيّر الأمر عند الله، ربنا يعلم المُفسد من المُصلح فراجع نفسه، لذلك وصف الله تعالى من يُذكرون بالله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ (206)

وفي المقابل سيدنا عمر قال له أحد الناس: اتق الله يا أمير المؤمنين، فهمم به أحدهم قال: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟! فقال له عمر: "فلا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها".

فيذكر الناس بالله إن كان في داخلهم خير، وبقية خير فإنهم يستحيون، وإيهم يستمعون فهذا أيضاً معنى ثانٍ (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ).

الإنسان لا يحب أن يُخطئ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

(سورة سبأ)

طبعاً الشركاء هم الأصنام الذين ألحقوهم بالإله، والإلحاق دليل على أن الأصل هو الإله العظيم جلّ جلاله، وإلّا هؤلاء قد ألحقوهم إلحافاً وهم ليسوا آلهة، لكن لماذا قال: أروني وهو يراهم؟ يعني أروني ماذا يفعلون؟ ماذا يصنعون؟ هل يملكون نفعاً أو ضرراً، أو حياةً أو نشوراً؟! (قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا) وكلا أداة ردع ونفي وجزر، كلا ليس لله شريك، بل ويل حرف إضراب تنفي ما قبلها وثبت ما بعدها، وتعلمون الناس في الإعلام الذي يتصدر في تقديم نشرات الأخبار، أنه إذا أخطأت في كلمة فقل بل، مثلاً: وقد قتل في هذا الحادث ثلاثمائة وهم ثلاثون فقط بل ثلاثون، لأنّ بل تنفي ما قبلها وثبت ما بعدها، لكن معظم المذيعين إذا دخلوا ينسبون ويقولون أو، لأنّ الإنسان في العمق لا يحب أن يُخطئ، فكأنه يريد التخيير، يعني أنا لم أخطئ هم إمّا ثلاثمائة أو ثلاثون، يعني يحاول أن ينجو من بل، لأن بل تعني أي أخطأت، بل إضراب نفي ما قبلها وإثبات ما بعدها، فينبغي أن نتعلم كلمة بل، حتى يستدرك الإنسان على نفسه يُخطئ ويُصيب، بل هي للإضراب تنفي ما قبلها وثبت ما بعدها.

قال: (بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يعني وحده جلّ جلاله العزيز الذي لا يُغالبه شيء في ملكه، الحكيم الذي يحكم بالحق ويضع الأشياء في مواضعها، فليس له شريك.

المؤمن لا يعلم الغيب ولكنه ينظر بنور الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)

(سورة سبأ)

يُخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم، كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعث نبينا صلى الله عليه وسلم للناس عامة وكافة، بشيراً ونذيراً، لأنه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وبشير يعني يُبشركم بالخير قبل وقوعه، ونذير يُنذركم من الشر قبل وقوعه، فلا يعلم الغيب إلا الله، ولكن لا أبالغ إذا قلت بإعلام الله تعالى لنبيه، وإعلام نبيه لنا، فإن المؤمن ينظر بنور الله، لا يعلم الغيب ولكن يعلم ما أعلمه الله تعالى له، فعندما يرى مبلغاً من حرام لا يأخذه، يقول لك هذا نارٌ مُحرقَةٌ، الآخر يأخذه لأنه ما وجد فيه ناراً مُحرقَةً، وجد فيه مكسباً عظيماً، يعني يجهد بسيط حصل مالا كثيراً، فهو يراه مغنماً والآخر يراه مغرمًا، فالذي رآه مغرمًا ورآه شيئاً ثقيلاً وناراً مُحرقَةً، لا يعلم الغيب ولكن بإندار الله تعالى له عليم ما سيكون فيما بعد، ولما جاء شيء قرض حسن، أقرض قرضاً حسناً مع أنه سيعود المبلغ له بعد سنة، ولو استثمره ربما حصل به شيئاً، لكنه أقرضه لأخيه ليتزوج قرضاً حسناً، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم بشره بما أعدّه الله تعالى لمن يُقرض الناس قرضاً حسناً، فالبشارة والنذارة بطريقه أو بأخرى هي أنك تعرف ما سيكون، ليس علماً بالغيب وإنما إعلاماً من الله تعالى لك في المستقبل، فالمؤمن يعيش في الشهادة وعينه على الغيب، عينه على المستقبل، (بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) فلا تكن مع الأكثر لأن أكثر الناس لا يعلمون وبريهم مشركون، فالعبرة أن تكون على الحق وليس مع الأكثرية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْذِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

(سورة سبأ)

يعني كان المشركون يسألون دائماً عن هذا الوعد تهكماً واستنكاراً لحصوله، يسألون عن موعده تهكماً بالمؤمنين فأجابهم الله تعالى: (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ) فالموعد حق من الله، وما كان من الله فهو حاصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُمْ بَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَتَرَاهُ قَرِيبًا (7)

(سورة المعارج)

(قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْفِرُونَ) فمواعده محددٌ من قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، حَاصِلٌ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَأْمُرُ بِهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَالْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ جِزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانٌ عِبْدٍ حَتَّى يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَدَائِمًا أَكْثَرُ اثْنَيْنِ تَلَازِمًا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، هُمَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)

(سورة النساء)

دَائِمًا هُنَاكَ تَلَازِمٌ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَدْفَعُكَ إِلَى الْاسْتِقَامَةِ عَلَى مَنْهَجِهِ، وَالْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَدْفَعُكَ أَوْ يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَطْلُمَ نَمْلَةً، وَأَنَّ هُنَاكَ مَوْقِفٌ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ، فَالْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ جِزْءٌ مِنْ عَقِيدَتِنَا وَهَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ كَانُوا يُبَارُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَيَسْأَلُونَ عَنْهُ سَوَآلَ التَّهَكُّمِ (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ) لَكُمْ مَوْعِدٌ قَادِمٌ (لَا تَسْتَأْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً) وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ السِّتِينَ دَقِيقَةً، وَإِنَّمَا الْبُرْهَانُ مِنَ الْوَقْتِ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ الْوَقْتُ الَّذِي يَقْتَضِي بِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَفْرِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.